قيمة الأسطورة وأبعادها في فلسفة فريدريك نيتشه.

The value of myth and its dimensions in Friedrich Nietzsche's philosophy.

محمد الأمين بوجنان[1،*]، محمد عفيان[2]

[1] مخبر تطوير، جامعة د. مولاي طاهر سعيدة (الجزائر)، aminеboudejnane09@gmail.com

[2] مخبر تطوير،جامعة د.مولاي طاهر سعيدة (الجزائر)،afianemoh82@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2022/07/06 ؛ تاريخ القبول : 2023/08/19

ملخص : نحاول في هذه الدّراسة الإجابة عن مسألة حضور الأسطورة، دورها وأبعادها الفلسفيّة داخل فلسفة نيتشه Nietzsche's philosophy (1844-1900)، بغرض تبيان ضرورتها في خلع الأقنعة التي ظلّت متسترة وراء الوعي الفلسفي الكلاسكي، مع إبراز أهميتها في بناء وعي فلسفي جديد.إذ سعى اللّوغس الفلسفي منذ بزوغه إلى محاربة كل أشكال اللامعقول بتطهير الوعي البشري من الخرافات و لأساطير المتداولة، وبلغ هذا العداء ذروته مع تطوّر العلم والتقنية في العصر الحديث، غير أنّه سرعان ما تلاشى في أواخر القرن التاسع عشر، بعد عجز العلم المعاصر عن تفسير الكثير من القضايا المتعلّقة بطبيعة الذرة و لمادة والكون. وقد عمدنا في ذلك على توظيف المنهج التحليلي بعنصريه: (التفكيك والبناء) إلى جانب المنهج الجينيالوجي. ومن بين النتائج التي توصّلنا إليها: الأسطورة قوّة منهجية في فهم القضايا اللامعقولة، فهي الأفق الذي يؤول، ويبدع القيم.

الكلمات المفتاحية : أسطورة؛ لامعقول؛ قيم؛ فلسفة نيتشه؛ لوغوس.

Abstract : : In this study, we try to answer the question of the presence of myth, its role and philosophical dimensions within Nietzsche's philosophy (1844-1900), in order to demonstrate the necessity of myth in taking off masks that remained hidden behind the philosophical consciousness of the Classical and their importance in building a new consciousness. Since its advent, philosophical lingering has sought to combat all forms of unreasonableness by cleansing human consciousness of myths. This hostility culminated with the evolution of science and technology in modern times, but it soon faded in the late 19th century, after the inability of contemporary science to explain many issues related to the nature of atoms, matter and the universe. We used the analytical method with its components: dismantling and building, along with the genealogies' method. Among our findings: myth is a systematic force in understanding unreasonable issues, a horizon that dictates, creates values.

Keywords: myth; Irrational; values; Nietzsche's philosophy; logos.

* المؤلف المراسل.

1- مقدمة

شهد الخطاب الفلسفي الغربي تحوّلات هامّة وجذرية عبر التّاريخ أدت بشكل كبير إلى تغيير الثقافة الغربية، ورؤيتها للعالم، الإنسان والحياة، حيث كان بزوغ الفلسفة في القرن السادس قبل الميلاد في ملطية على ضفاف آسيا الصغرى أهمّ منعطف عرفته الذات الغربية في جميع مناحي الحياة الفكرية والثّقافية، إذ انتقلت تدريجيا من الوعي الساذج في صورته الأسطورية عند الإغريق إلى التّفكير الفلسفي القائم على المبادئ المنطقية والأسس العلمية، فتمخّض عن هذا التحوّل الرّهيب الإستعاضة عن الرؤى الأسطورية اللامعقولة بالطّروحات الفلسفية الممنهجة، وبذلك عجّل بموت الأساطير وما لازمها من معتقدات وفنون، وسار رأسا نحو إعادة بناء المفاهيم والإشكاليات والرّؤى، فانتهى في الأخير بتشيّيد حصن فلسفي قائم على النّسق والمنهج.

نحاول داخل هذه الورقة البحثية تحليل إشكالية راهنة تتعلّق بأسباب الإرتداد إلى الطور الميثولوجي إلى الساحة الفلسفية المعاصرة، بعد تهيئة الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche(1844-1900) الأرضية المناسبة للعودة، وفي المقابل نقوم بمقاربة حول سؤال مصير الفلسفات العقلانية وقيم اللاهوت المسيحي داخل فلسفة نيتشه التي تؤسّس للاّمعقولية، وهو ما يفرض علينا طرح الإشكالية التالّية: كيف يمكن أن تكون الميثولوجيا الإغريقية منهجا لنقد القيم الكلاسكية وصناعة الإنسان الأعلى عند الألماني نيتشه؟ إنّ الإجابة عن هذه المشكلات الجزئية فرضت علينا استخدام المنهج التحليلي والنقدي، أما أهمّية الدراسة تكمن في العودة الرهيبة إلى الأسطورة اليوم لإعادة اكتشاف الإنسان وعلاقته بنفسه وبالآخر، لتكون الأسطورة البديل الوحيد لكل أزمة يقع فيها العقل المعلمن.

1.1-الأسطورة مسائل أساسية حول المفهوم :

إنّ التمثّل السائد والمبتذل للأسطورة(Mythe) وضعها نقيضا للعقل (Logos)، كمّا صنّفها في دائرة الأوهام والخرافات. فتصبح عن طريق ذلك، ومن وجهة نظر الكثير من الباحثين ضرب من الإضطرابات العقلية التي لن تكوّن في نهاية المطاف سوى حالة من اللاّتفكير واللاّمعنى، كما أنّها لحظة تاريخية بدائية انقضت بظهور التفكير المنطقي. يخلط الكثير من الدّارسين اللامتخصّصين في مجال الأساطير بشكل تعسّفي وبمنطلقات غير مؤسّسة بين الأسطورة وبقية الأنساق الأخرى كالخرافة والحكاية الشعبية والملحمة والسّحر، كما لم ينعقد إجماع المتخصصين نفسهم على مفهوم جامع مانع للأسطورة. تعدّ مساءلة مفهوم الأسطورة، عناصرها ووظائفها مساءلة ضرورية لاسميا على المستوى النظري لأشكلة العلاقة بين "اللامعقول والمعقول" إن كانت فعلا: علاقة تناقض وتعاكس، أم تضايف واحتواء؟

ترتدّ صعوبة الإحاطة بماهية الأسطورة وماهيتها إلى خصوبة الأساطير وانفلاتها من المنطق العقلي، ما يطرح مشكلة مفهمة الأسطورة، ويمكن اختزال هذه الإشكالية في سببين رئيسين:

أ. الوشائج الكبيرة بين الأسطورة غيرها من الأجناس: (التاريخ، السحر، الحكاية الشعبية، الخرافة، والطقوس)

ب. تنّوع الأبحاث والدراسات واختلافها حول الأسطورة كالأنثربولوجيا، علم الاجتماع، علم الأديان، علم الأساطير، التاريخ والفلسفة، إلى جانب كثرة المدارس والمناهج الباحثة في الأساطير كالبنويوية، التفكيكية، التحليل الأسطوري والنقد الأسطوري.

توحي المقاربة المفاهيمية المبدئية للأسطورة عن صعوبة احتواء معانيها و القبض على دلالة رموزها، فلاشك أن هذه الصعوبة هي التي دفعت القديس أوغسطين Saint Augustin (354–430) يجيب عن سؤال ماهية الأسطورة بقوله: " إنني أعرف جيّدا ماهي، بشرط أن لا يسألني أحد عنها، ولكن إذا ما سئلت و أردت الجواب فسوف يعتريني التلكؤ". (رِائفين، 1981، صفحة 9) إن الخطاب الأوغسطيني يعلن بشكل واضح ومباشر عن خطورة إدراك معنى دقيق وشامل للأسطورة، لذلك يبقى الرّمز اللغوي المنطوق عاجزا عن مسايرة الرّمز الأسطوري اللامنطوق نظرا لخصوبة معانيه وتنوّع الآراء التي نزعت إلى تعريفه و تأويله.

يتدحرج القلق تدريجيا من نقطة أساسية ألا وهي محاولة الوقوف على الاشتقاق اللفظي للأسطورة داخل السيّاق العربي، بحيث ينظر بعض الأنثربولوجيين العرب إلى الأسطورة على أنّها كلمة غريبة عن اللسان العربي، ويرى مثلا المتخصص في الأسطوريات "وديع بشور" أنّها مصطلح إغريقي الأصل، ففي نظره احتكاك العرب قديما بالثقافة الإغريقية على سبيل الإكتشاف أو التجارة قادهم إلى نقل لفظ (historia) إلى اللغة العربية "سطوريا" بنفس المعنى الإغريقي بمعنى "حكاية أو قصة"، ثم تبلور اللّفظ في اللغات الأجنبية ليصل إلى الفرنسية (histoire)، وفي الإنجليزية (history)، والإسبانية (historia) وهي نفس اللفظ الذي يحمل نفس الدلالة للإشارة إلى القصص الحكائي الذي يروي أخبار الأمم والحوادث التاريخية التي تم تناقلها عبر الأجيال في إطارها الزماني والمكاني، يقول وديع بشور في هذا الصدد :" تعني كلمة ميثوس (mythos) عند الإغريق حكاية، وكلمة " أسطورة" العربية مقتبسة من كلمة "إستوريا (historia) " اليونانية، وتعني حكاية أو قصة، إلا أنها تعني حكاية غير حقيقية، أو عكس الحقيقة، بينما الكلمة ذاتها (historia) تعني التاريخ." (بشور، 1981، صفحة 7)

إن التشابه الموجود بين الأسطورة وسطوريا فونتيكّيا، وتقاربها الكبير كذلك بأصوات كثيرة مثل(astron) الإغريقية التي تعني التنجيم، أو اعتبار جذرها الثلاثي – سطر – منسوخ من "star" التي تعني النجم وتشير بذلك إلى العالم الفوقي أي عالم الآلهة، أو الإعتقاد أنّ إسطار مشتقة من عشتار (Ishtar) إلهة الحب والجمال في حضارة بلاد الرافدين، إلا أنّه لا يوجد توثيق كرونولوجي واستدلالي دقيق على صحّة هذه الطروحات، أو الطريقة والحدث الذي تمّ به نقل لفظ الأسطورة إلى االمعاجم العربية، من أجل ذلك، فإنّه تبقى الأسطورة كلمة عربية أصيلة على الرغم من الجدل الكبير حول إيتمولوجيا المصطلح.

إنّ الأسطورة في اللغة العربية من الجذر الثلاثي (س–ط–ر)، وزنها "أفعولة" مثل أعجوبة، أضحوكة، أنشودة، أرجوحة، أما جمعها على وزن أفاعيل كأباطيل وأقاويل، وتحمل الأسطورة معنى الأكتوبة أي تلك الرّسوم والكتابات التي كانت موجودة في الألواح الحجرية التي عثر عليها في كل المناطق التي دخلت إليها الحضارة.جاء الفعل الذي اشتقت منه معناها ليشير إلى التدوين و الكتابة، أمّا الوزن أفعولة–أسطورة– يحمل معنى الخرافة والأحاديث الباطلة والأوهام الضّالة. (سيدا، 2022، صفحة 75)

أما اصطلاحا، اختلف علماء الأساطير والمهتمين بها ضبط مدلول جامع مانع لها، حيث كتب جوزيف كامبل Joseph Campbel (1904–1987) في الأسطورة على أنها: " مفتاح القوى الرّوحية للإنسان". (كامبل، 1999، صفحة 23) الحديث عن الأسطورة من خلال تعريف كامبل يقدّم الشكل الأول للأسطورة الذي جاءت فيه مطابقة للمعتقدات الديني، ولعلّ نشأة الأسطورة جاءت بعد حاجة ماسّة إلى التعبّد، أي من الحاجة التي تولّدت من قلق سيكولوجي ناتج عن الدهشة من تقلبات ظواهر الطبيعة، وعجز العقل على تفسير نواميسها والقوانين المتحكّمة فيها. يمكن الوصول إلى أنّ الأسطورة هي الدّين الأوّل أو "البدائي" الذي عرفته الذّات الغربية في مرحلة ما قبل الوعي الفلسفي، ويمكن استخلاصه من الأساطير التي كانت تدور وقائعها حول الخلق والتّكوين والمصير، وعرضت طقوس التعبّد وصيغ التقرّب من الآلهة.

المماثلة بين الأسطورة والمقدّس إلى حد المتاهي لا يلغى وجود تعريفات أخرى تحملها ،لاسيما بعد الظهور المكثّف للمدارس المتخصصة في الخطاب الميثولوجي في الفترة المعاصرة والعودة الكبيرة لتفكيك الرمز الأسطوري. اتجهت الأنثربولوجيا البنيوية Philosophical Anthropology إلى البحث عن المعنى المنبثق من الأساطير، الأمر الذي سهّل لها مأمورية الاقتراب من ماهية الأسطورة؛ إذ خصّص الأنثربولوجي الفرنسي كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss (1908–2009) الكثير من الأعمال الضّخمة في دراسته للأساطير أبرزها: "الأنثروبولوجيا البنيوية "Structural anthropology (1958)"، إلى جانب سلسة من الدّراسات البنيوية على الأساطير القديمة موسومة ب:"أسطوريات".

اهتدى شتراوس عن طريق تطبيق المنهج اللغوي البنيوي إلى الخيط الناظم للأساطير السائدة عند الشعوب من داخل الروابط الداخلية التي تؤسس لوحدة منطقية داخل الأسطورة الواحدة، كما توجد فكرة مشتركة توحد بين جميع الأساطير .يصل شتراوس في النهاية إلى أنّ الأساطير لا تحتوي على عناصر مفكّكة ومنعزلة كما تبدو من الخارج، كما لا يوجد أي تناقض أو تعارض داخل الحكاية الأسطورية الواحدة، بل تتضمن وحدة شمولية ومعنى منسجم لا يمكن التقاطه إلا بفهم كلي ونسقي لميثمات أو البنية الأساسية للأسطورة.

ادرك شتراوس بواسطة التحليل البنيوي الرمزي إلى بناء مفهوم خاص للأسطورة فهي من جهته واقعة ثقافية إجتماعية مركّبة ومعقدة، تتكوّن من عناصر متناقضة في الظاهر مترابطة في الباطن، كما أنها حكاية تاريخية تتّصف بالتزمن فهي تعود إلى الماضي لتقول شيئا عن الحاضر والمستقبل، هذا ما يطابق بالتمام قوله:" الأسطورة تروي أحداثا من الزمن الماضي، زمن ما قبل خلق العالم... ولكن القيمة الجوهرية التي تتميز بها الأسطورة تتمثل في كونها تروي أحداثا من المفترض أنها وقعت في لحظة من الزمن كما أنها تشكّل أيضا بنية ثابتة، والتي قد تكون مرتبطة في نفس الوقت بزمن الماضي والحاضر والمستقبل" (Strauss، 1985، صفحة 23).

أمّا الأسطورة عند رولان بارت Roland Barthes (1915–1980): "هي جزء من السميولوجيا، بما هي علم شكلي، ومن الإيديولوجيا بما هي علم التاريخ: الأسطورة تدرس الأفكار المشكلنة التي يمكن إعطاؤها شكلا) (بارت، 2012، صفحة 229). لا يمكن اختزال البحث في الرواية الأسطورية في ما هو شفهي حكائي جرى في الماضي، بل تمتد الدراسة كذلك إلى عرض التفكير في الشكل السيميائي للأساطير

المعاصر، فهي تحضر بشكل كبير داخل يوميات الإنسان المعاصر، قد تكون عبارة عن كلمات مكتوبة أو مهرجان، سينما، إشهار، ما يجعل أي خطاب يحمل أسطورة من نوع خاص.

لم يكن حضور الأسطورة في سفر رولان بارت أسطوريات " أساطير الحياة اليومية " (1954–1957) إلّا بعدما لاحظ أن الأسطورة لم تبقى مفارقة للعالم و متعالية عنه بل محايثة للواقع و متشعشة فيه، أمّا القول بأفولها وموتها خرافة في حدّ ذاتها. حاول بارت البحث في الأساطير من زاوية سيميولوجية Semiological في الثّقافة المعاصرة في نظره تنتج يوميّا كثرة من الأساطير.

وعليه، الأسطورة في مفهومها العام ظاهرة إنسانية حاولت تفسير الكون وظواهره، الإنسان وعلاقته بآلهته، كما عكست حياة الشّعوب البدائية ويومياتها، كما كانت دستورا سنّت القوانين التي يجب أن تخضع لها الطوائف والقبائل، كما يمكن اعتبرها تنظيما حدّد المبادئ الأخلاقية والحياة السياسية والقيم الفنيّة. إنها نتاج الوعي البدائي والمخيلة الخارفة التي ارتبط ارتباطا وثيقا بتفسير نشأة الحياة وكيفية الخلق، وبحثت في مصير الإنسان ومآله، فهي إذن، منظومة فكرية وسيميولوجية ولدت من داخلها الفلسفة، العلم، القيم، اللغة السياسة، الفن والدّين.

2.1- بزوغ العقل الفلسفي وأفول الوعي الأسطوري:

إنّ نزوع الفكر الإغريقي إلى الخطاب العلمي، وايمانه المطلق بالمنهج دفعه إلى إبعاد الأسطورة ونفيها من الساحة الثقافية، حيث بدأ هذا الإشتغال مع ظهور البحث العقلاني في مسألة أصل الوجود مع الفلسفات الكسومولوجية Cosmological Philosophies. أين صرفت هذه الفلسفة النظر من العالم الفوقي المؤله إلى العالم الأرضي المعقلن. شرع الكسمولوجيون في تدشين أول رؤية رافضة للمتخيل الأسطوري، وقد تزامن ذلك مع ظهور النّقد الفلسفي للاّمعقولات والفكر التأملي في الكينونات المماثلة للعيان، متجها نحو البحث في السؤال القديم الجديد أي أصل الوجود إلا أن المقاربة كانت مختلفة عوّل فيها على أدوات عقلية محضة.كانت نقطة الإنطلاق مع إكسينوفان Xenophon (430–354 ق.م) الذي زرع بذور الشّك في تعدد الآلهة واتّهم الميثولوجيا بتشويه صورة الآلهة، فوجه أصبع الإتهام إلى هوميروس Homer (عاش في 850 ق.م بالتقريب) وهيزيود Hesiod (ما بين 750–650 ق.م) اللذان قدّما توصيفات للأخلاقية للآلهة، فاعترض بشدّة على أشعارهما وروايتهما الملفقة حول الآلهة، واحتجّ على الشكل الذي بدت به الآلهة داخل الإلياذة والأوديسا الهوميرية أو ثيوغونيا هيزيود Hesiod's Theogony . كان إكسينوفان يؤمن ايمانا مطلقا بواحدية الإله ونزاهته.

تؤسس فلسفة الوحدة لمقولات المطلق والثابت والإنتظام، وهي الفلسفة التي دافع عنها إكيسنوفان منذ البداية، مغادرا التّصورات الميثولوجية التي تتوهم صراع الآلهة، وتنعتها بالممزاجية المتقلبة كما تصوّرها في صيغة منحطة ومبتذلة، أين أبدى امتعاضه من الطريقة التي حضرت بها الآلهة داخل الإليادة الهوميرية، لأنّ أكبر إساءة قدّمها هيزيود وهوميروس عندما رسموا آلهة بصفات إنسية شريرة وهي سوى أساطير من نتاج الخيال البشري، أسقط الطبع الدونجاواني Dongwani Printing واللاأخلاقي unethical فيه على كائنات ماورائية

غير موجودة. فالحس السليم والمنطق العقلي في نظر إكيسنوفان لا يقبلان آلهة تغتصب وتساوم، تمكر وترواغ، تتزاوج وتتكاثر، تختطف وتقتل.

بلغت الفلسفة التّأملية ذروتها مع سقراط Socrate (470–399 ق.م) الذي قدّم نفسه على أنه المنقد من الضّلال، أراد بواسطة الحوار والجدال تغيير القيم وتحرير العقل الإغريقي من الأوهام السائدة والأساطير المتداولة، في الكثير من محاورته يتهجّم على آلهة ألومب والحكايات الشعبية التي تدور حولها. إن السقراطية تقضّل الحقيقة الدينية و المعرفة التي تبدأ من معرفه الإنسان لذاته، وتنبثق من جوانية الأنا لا من برّانيتها، وتنفجر المعارف من الداخل ولا تملى من الخارج. فإعرف نفسك بنفسك السقراطية قلبت التصوّرات المنشرة بشكل تام، كونها قوّضت بطريقة غير مباشرة الأحكام المبتذلة والأعراف السائدة.

يعلن الطور السقراطي عن مولد تلك الفلسفة التي يجب أن تحتكم لقواعد المنطق فقط. وهي القاعدة التي ترسّم الملمح النهائي للفلسفة العقل، حيث تقيم القطيعة المطلقة مع الفكر السابق والمتداول أي الوعي الميثولوجي.

استمر الإعتداء على الأساطير بعد التطوّرات التي شهدها العقل عبر مراحل تاريخية كثيرة، إذ تعتبر الحداثة أهم لحظة بلغ فيها اللوغس صلابته المنهجية والمعرفية. شرع ديكارت في وضع مبادئ النسق العقلاني الخالص، مشكّكا في كل ما يحول دون إدراك العلم الكلي، ثم حملت الحداثة الغربية بعده مع المذهب العقلاني والمذهب التجريبي مهام مشروع التنوير والتطهير من الخرافات اللاهوتية وأخطاء الموروث الأفلاطوني والأرسطي، لتشقّ الطريق نحو تنشيط المناهج لتحقّق التقدم والسّيطرة على ظواهر الطبيعة، وهو المشروع الذي لاح في الأفق عندما تبيّن أن المنهج الإستقرائي يضمن ذلك، وأثبت عمليا قوّته وخصوبته في استخلاص النتائج، وعمل على وضع الإنسان كمركز للكون بعيدا عن املاءات الآلهة التي تشبث بها التقليد الغربي منذ القدم.

لم تكن الحداثة "modernity" حقبة تاريخية فحسب، بقدر ما كانت ثورة جذرية لجميع المفاهيم المنافية للعقل العلمي، فهي قبل كل شيئ:"قيمة value". إذ رفضت تحت لواء النزعة العلمية تأليه العلم وأسطرة الفلسفة mythicize philosophy، كما نقدت جميع التصورات Irrational perceptions وعلى رأسها الأسطورة والدّين المسيحي المؤثلج. لقد مانت الثورة الكوبرنيقية والمنهج الديكارتي مناسبتين لاكتشاف الطبيعة وصون العقل من الزلل من خلال تأسيس الرؤى الممنهجة ورسم أفق فكري حداثوي، هذه الرؤية هدفت إلى تسهيل مأمورية القبض على الحقيقة المطلقة بطريقة عقلية، منهجية ونسقية، وهو ما برهن عليه العقل العلمي والمنهج الفلسفي في العصر الحديث عند اكتشافه للتقنية وتطويره للواقع الأوربي الذي مسّ جميع مناحي الحياة اليومية والفكرية.

استبعد فلاسفة التنوير في مشروعهم التحديثي كل ما يقف أمام تحقيق التقدّم، منتقدين فيه كذلك تعاليم اللاهوت المسيحي، فظهرت تيارات علمانية تدعو إلى فصل اللاهوت عن: السياسة ، العلم والفلسفة. أعدموا من خلال هذه الرؤية جميع التيارات الروحية والرومانسية على مقصلة العقل، بذلك تزحزحت الأسطورة عن مكانتها وتلاشت سيادتها. فما يميّز القرن السابع عشر والثامن عشر تمسكهما بالعقل والمنهج والنسق، لهذا شهدت السّاحة الغربية ثورة تنويرية تحرّرية لانظير لها، أبدى فيها فلاسفة التنوير تحت قيادة مونتسيكو،

فولتير، روسو، ديدرو، هولباخ وكانط مواقفهم السّاخرة من الأساطير والحكايات الشعبية، لأنّها بالنسبة إليهم إلّا اضطراب فكري لا نظام له ولا أساس، بيد أنّها فوضى من الأوهام المغرية والملفقة التي تظلّل الذّات وتبعدها عن الحق، ولهذا اشتغل عقل الأنوار على هذا المسعى عن طريق غربلة الفلسفة من الأساطير والأباطيل.

لم يتوقف رفض الأسطورة في حدود القرن الثامن عشر، بل تواصل تهميشها وإبعاد مقولات الدّين من الدرس الفلسفي مع مطلع القرن التاسع عشر. إن اعلان هيغل عن نهاية الميتافزيقا دشّن عصرا اتسم بسيطرة الليبرالية الصناعية "Industrial Liberalism" على شتى مجالات الحياة الأوربية، وبدأت البيولوجيا في ترسيم مكانتها بين العلوم مع أعمال كلود برنار ولويس باستور، كما تواصلت الإكتشافات الكيميائية كان أشهرها إنشاء جدول دوري للعناصر، أمّا في السياق الفيزيائي توصّل العلماء إلى تعريف الطاقة وضبط دلالة الحرارة فيزيائيا، مما ساعدهم على ابتكار البطارية والمغناطيس الكهربائي، واختراع آلة الكتابة والتلغراف إلى جانب الكثير من الاختراعات المتطوّرة.

مما لاشك فيه أنّ هذه التغيّرات الرّهيبة والإنهمام المتزايد بالماديّات دفعت بكارل ماركس Karl Marx (1818-1883) إلى التفكير في مصير الإنسان وآليات علاجه من الاغتراب "alienation" الذي يتخبّط فيه. انطلق كارل ماركس بضرب مبادئ الليبرالية المتوحشة ثم فضح نوايا اللاهوت المسيحي الذي يستخدم الأساطير كذريعة للإطاحة بضحاياه ويحفظ استمراريته، فما الأديان من منظوره إلا أساطير خطيرة على حياة الشعوب. تلعب الأسطورة والدّين دورا أساسيا عند الشعوب المتخلفة التي تعارض فكرة التغيير، بل هي بالنسبة لأصحابها أداة للاستمرار في الوضع السائد، لأن التاريخ البشري يثبت أن جميع المجتمعات الضعيفة تنتهج باراديغما سياسيا واقتصاديا،هدفه الوحيد خلق طبقة في المجتمع ضعيفة، أجيرة وكادحة.

إذن، لم تجد الأسطورة لنفسها مكانا نظرا للإنبهار بنتائج المناهج العلمية والإكتشافات التقنية.همّت الحداثة الغربية بتحطيم اللامعقول واتهامه، ثم اعتقال الأسطورة واستبعادها، وصولا إلى معارضة كل أشكال التدين ومعاداته. لقد كان المشروع الحداثوي تحديث المنظومة الغربية بالضغط على الثقافة لتكون متناسقة مع المنطق العقلي، فاتسع دائرة العقلانيات لتضمن داخل حيزها جميع المجالات، لا بل السعي وراء عقلنة الإنسان والطبيعة والسياسة و الفن، حتى اللامعقول أضحى معقّلنا مع الفكر الغربي الحديث.

2- فريدريك نيتشه في مهّمة تحرير الأسطورة:

دفع التّوق إلى إدراك الحق والحقيقة بالعقل الغربي في المرحلة الأولى لتأسيس اللوغس إلى محاربة الأساطير وتطهير الذّات من آثارها، ثمّ مضى نحو تأسيس البرادغيمات الفلسفية القائمة في جوهرها على احترام التطابق بين النسق والمنهج، النسق والعقل، النسق والواقع، مع الأخذ بمقولات المنطق، شروطه ومفاهيمه. لاشّك أن العقل العلمي منذ فترة الطفولة مع الكوسمولوجين في البحث عن أصل الكون، إلى غاية مرحلة الشّباب والنضج عندما طبّق قواعد المنهج التجريبي واستخدم العقل الرياضي والمقادير الكمّية في تفسير الطبيعة وظواهرها.

حقّق اللّوغس نتائجا لا نظير لها بعد ما تمّكن من تفسير المادّة تفسرا ميكانيكيا، كما قام بالسّيطرة على ظواهر الطبيعة واخضعها لصالح الإنسان، ما جعل الذات تتبهر في إنجازاته وقدراته الخارقة على السّمو بالإنسان بوصفه مركزا للكون. إلّا أنّه مع النّصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهرت حدوده وعيوبه، لاسيما بعد تفجير العالم بحربين عالميتين إلى جانب خلق أزمات إيديولوجية وحركات إمبريالية متوحّشة،جعلت الإنسان غريبا عن نفسه وعن أرضه، يتخبّط داخل فاجعة إنسانية، لأنه أعدم الحياة وعنفوانها، الإنسان وانفعالاته على مقصلة العلم والتّقنية.

ولد الدّمار الأنطولوجي و القلق السيكولوجي كنتيجة حتمية لسوء توجيه مقاصد المنهج العلمي وقصور رسم آفاقه المستقبلية، وضعت اللّوغس في مأزق وجودي وابستيمي حول ماهية "الإنسان" الذي يمكن انتاجه في ظل تنامي الحس التقني. وهي الخطيئة التي تنبّأ بها الفيلسوف الألماني والشّاعر والفيولولوجي فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche (1844–1900) عندما دعا إلى إعادة التفكير في مآل الإنسان في زمن تنامي العقل التقني الخطير، باحثا عن سبل انتشال الإنسان من مستنقع الفلسفة العقلانية.

يعتبر فردريك نيتشه لحظة أساسية في تاريخ الخطاب الفلسفي برمّته، فلا يمكن اعتباره قفزة زمنية من الحداثة إلى ما بعدها فقط، بقدر ما يشكّل عاصفة فكرية اقتلعت المفاهيم الحداثوية من جذروها. فتقصي نصوص نيتشه وأفكاره تعكس قوّتها في قراءة الواقع الأوروبي إلى جانب بصيرته نيتشه الجينيالوجية généalogic الخارقة في تعرية الأوهام التي التصقت بالثقافة قرونا عديدة. لم يكن فيلسوف المطرقة مختلفا في أفكاره وتصوراته الفلسفية التي يمكن نلمسها عند أي فيلسوف، إنما تميّزه واضح في الصلابة التي يكتسيها طرح الأفكار ومعارضته الشرسة للأنساق الدوغمائية الميتدولوجيات التي عملت جنبا إلى جنب لإعدام الإنسان والحياة.

يعوّل نيتشه منذ البداية على الإشادة بالأساطير الإغريقية وفي نفس الوقت يوجّه هجومه المتكرر على المنطق العقلي.ما يجعل الدّارس يفكّر في أسباب عودة نيتشه إلى المرحلة الماقبل سقراطية دون غيرها.اقتصر العقل منذ ميلاد الفلسفة النسقية مع أفلاطون إلى غاية نهاية الميتافزيقا جميع الأفكار التيولوجية والإتجاهات اللاعقلانية، انصب الهدف صوب إقامة صرح ثقافي معقلن ، إلا أن ذلك الهدف انحرف عن مقصده لأنّه خلق في الأخير الإنسان المدجّن. إذ أراد النسق العقلاني فصل الأخلاق المسيحية عن الفلسفة غير أنه رمّم في الأخير الفلسفة اللاهوتية، ثم قاد الإنسانية مع أواخر القرن التاسع عشر في أزمة روحية و إنسانية عجّلت بميلاد عصر الفراغ كما سمّاه ليبوفتسكي Gilles Lipovetsky (1944) الناتج عن الرفاهية المريضة والثورة الاقتصادية الجوفاء.

إنّ شعارات الحداثة الواهية التي حمل لواءها فلاسفة التنوير وعلى قمتها لا سلطة على العقل إلا العقل، استغلت العقل لقتل الجانب اللاعقلاني للإنسان الذي يعتبر ركيزة أساسية للحياة وفي الحياة. والأخطر من ذلك حوّلت التراجيديا التي عشاها الإغريقي في العصر الذهبي إلى تفاؤل مغشوش في العصر الحديث. إنّ براعة نيتشه في الفيلولوجيا مكّنته من بعث الأرشيف الإغريقي المهمّش، وتأويل الرمز الأسطوري الذي أهّله إلى تفتيت الحقائق وخلع الأقنعة المتسترة وراء فلسفات لاهوتية مؤخلقة شوّهت صورة الحياة.

لقد حضيت الميثة الإغريقية بمنزلة خاصة في فلسفة نيتشه، وهي المرتبة التي لم تعهدها منذ أفولها بعد ظهور الفكر الفلسفي. لم يكن حضور الأساطير والملاحم مع نيتشه كحالة سيكولوجية عابرة أو نوستالجيا لزمن لن يعود، بل كانت وسيلة لنقد المثاليات المتعالية التي تفوح منها العدمية والإنحطاط، بيد أنها الطريقة الفعّالة لتشريح جسد الثقافة عامة والفلسفة الألمانية خاصة ومن ثمة تشخيص أمراضه. لقد ركن نيتشه إلى الأسطورة عندما حفر في الماضي المنسي بالفيلولوجيا و تبيّن له بعد ذلم قوة رموزها في فهم العالم و تفكيك الواقع.

ظهر التّوجه اللاعقلاني في فلسفة نيتشه وميله للأسطورة منذ مرحلة مبكّرة، حيث كانت سيرته الذاتية في مرحلة الطفولة وتكوينه المكثف في اللاهوت والفن واللغة عاملا مهما في اكتشاف أفكار نيتشه اللاحقة، ففي أكتوبر 1855 نلقى دورسا حول اللغة اللاتينية والإغريقية، وهي المناسبة التي فتحت له أفقا للتعرّف على أساطير آلهة الإغريق، وساعدته على كتابة القصائد والمسرحيات. وتعتبر مسرحية " الآلهة على أليمبيوس" المحاولة الأولى في تدوين القصص المسرحي التي كانت مقاسمة مع زميله فيلهلم. (بلو، 2018، صفحة 89). نضجت قوّة نيتشه الفيلولوجية عندما بلغ السن الواحد والعشرين، كونه تلقّى دروسا في الفيلولوجيا الكلاسكية سنة 1865 على يد فريدريك ويلهلم ريتشل Friedrich Wilhelm Ritschl (1806–1876) في جامعة لايبتزيغ التي أهلته أن يكون أستاذا في جامعة بازل.

يعدّ هذا الثالوث : قوّة الخيال النتيشوي، كتابة المسرحيات والقصائد في مرحلة الطفولة، المسلك الذي صنع نيتشه الفيلولوجي والقارئ البارع للأدب الكلاسيكي، بل شكّلت كذلك هويّة نيتشه الفلسفية المعارضة للإتجاه العقلاني. يعتبر "مولد التراجيديا 1872 "Birth of tragédie نقطة الإنطلاق النتشوية للتفكير في ماهية الوجود بطريقة جينالوجية لا ماهوية، محاولا كشف المعنى والأصل الذي تأسس منه الحياة ولا يعارضها، فيأخذ بعد البحث الجينيالوجي بالتبرير الإستطيقي بدلا من التبرير العقلاني للوجود. تمخض هذا التبرير الجمالي للعالم عندما فكك نيتشه رموز الأساطير الإغريقية، لهذا احتل مساحة شاسعة داخل نصه "المولد" وفي جميع الشذرات واللحظات التي مرّت بها الكتابة النتشوية

انقلب نيتشه على الوعي الفلسفي الذي ألغى الأسطورة و الجانب اللامعقول من معادلة الحياة، حيث الدور الذي لعبته الأسطورة عند الأغريق في تأويل العالم بوصفه ظاهرة فنية منحهم وفرة سيكولوجية و فرح غامر لمكابدة الألم، وهو ما أخفق فيه الفلاسفة على رأسهم سقراط الذي يصفه باللامأساوي كونه شيّد قلعة الإنحطاط عن طريق الجدل العقلاني، فالمرض الذي أصاب جسد الحضارة الغربية سببه التعاطي المفرط للعقل الذي خلق التفاؤل الواهم، يشير نيتشه إلى ذلك قائلا: "إن هذا التّوق إلى العقل بأي ثّمن، و هذه اللّذة في جعل الحياة جليّة، باردة، حذرة ، شعورية، لاغريزية، كل هذا لم يكن إلا مرضا جديدا، و لم يكن أبدا عودة إلى الفضيلة، إلى السّعادة. (Nietzsche، 1977، صفحة 100)

عرف الإغريق الطريقة التي يجب أن يتعاملوا بها مع آلهتهم وأساطيرهم، ما منحهم الإمتلاء والسكر والنّشوة، كما عرفت إرادة القوة نفسها من قوّة الأساطير التي خرجت في طابع غنائي تراجيدي يعبّر عن حقيقة الوجود، غير أن اللاهوت المسيحي صلب الوجود وأعدمه بتعاليم لاهوتية مؤخلقة وقتل كل ما يمت إلى الحياة والغريزة

بصلة. فالملاحظ لجميع أعمال نيتشه أي من مولد التراجيديا إلى غاية إرادة الإقتدار يجده يثني على إلهه المبجّل " ديونيزيوس Dionysos" واضعا إياه نقيضا للمسيح، يقول في ذلك: "هل جرى فهمي؟ ديونيزوس ضد المصلوب" (Nietzsche, Ecce homo, 1988, p. 75)

استطاعت الموسيقى الديونوزيسية والنظام الأبولوني كما جاء في الميثولوجيا الإغريقية أن يقولا في الحياة ما لم تقدر عليه الأنساق الفلسفية الكبرى، بحيث في الأسطورة استعارات مختفية عندما تؤول يظهر هول الوجود، فالقصة الأسطورية تشير إلى آلام الحياة، كما تُظهر كل شيئ في صورة جمالية تحبّب للإنسان حياته وعالمه، وفي هذا يصرّح نيتشه قائلا : "من الواجب أن تكون الأسطورة عفاريت حارسة، لا يغيبون عن المكان ولا تراهم الأعين". (نيتشه، 2008، صفحة 248) فالأسطورة في نظره ليس معارضة للعقل، بل قيمتها تكمن في فهم الجانب المظلم من الوجود فهما يسيران جنبا إلى جنب، إذ تحل الأساطير محل العلم بعد كل فشل يقع فيه.غير أنّ تمركز العقل حول نفسه ساهم في موت الأسطورة واقتلع الثقافة من جذورها مبشّرا بعصر الإنحطاط والركود.

3- الأبعاد الفلسفية للأسطورة:

شكّلت الأسطورة منهجا أساسيا في النّص النيتشوي للنّسف بجميع القيم السائدة، ولم يتوقّف الأمر عند هذا الحد بقدر ما كانت تأويلا عمل على القلب الجذري لجميع المفاهيم الفلسفية والمناهج الفكرية، انتصب بغية إعادة تراتبية الحقائق، إن التوظيف النيتشوي للأساطير الإغريقية باستحضار الحكمة الديونزيوسية مقابل الأبولونية Apollonian لم تكن مجرد رغبة عابرة أو حنين للخيال الإغريقي الغارق في الأسطوريات، إنما كانت رؤية تأويلية حملت في طيّاتها أبعادا متعددّة، وهو ما يدفعنا لطرح التساؤل التالي: ما أبعاد الأساطير في فلسفة فريدريك نيتشه؟

1.3-البعد الوجودي :

يتصل سؤال الوجود عند نيتشه اتصالا وثيقا بفكرته حول العدمية من جهة ونقده لميتافزيقا الأنطولوجيا كما دافع عنها الفلاسفة واللاهوت المسيحي من جهة أخرى، حيث أقام التقليد الغربي تمبيزا شارخا بين الوجود الحقيقي والوجود الزائف. إلا أنّ هذا الفصل التعسفي بين الحقيقي والزائف هو في الحقيقة تقديم المطلق، السكون والوحدة الممثّلة في الروح عن النسبي المتغير والمتعدّد الممثّل في الجسد والغرائز.

إنّ الفلسفة السقراطية بوصفها الدعامة الأولى للّوغس حاولت الإجابة عن إشكالية ما الوجود؟ اختزلته في مقولات عقلية ومنطقية جوفاء، غير أن نيتشه ينقل الإشكالية من ما الوجود؟ إلى من هو الوجود؟ وهذا الإنتقال لن يتجلى إلا بالميثوس الذي كشف الستار وحدّد مسار القوى لصالح الفوضى والتغير والجسد. فكيف يمكن أن تكون الأسطورة أسلوبا تأويليّا الوجود؟ يستخدم صاحب المطرقة الأسطورة كطريقة لقلب الطرح الأفلاطوني الذي جعل الوجود اللاّمرئي-عالم المثل- الوجود الحقيقي، والوجود المرئي-العالم الحسي- الوجود المزيّف، نظرية الوجود كما قّدمها أفلاطون دافعت عنها المسيحية، التي جعل الأرض بؤرة الشّر والآلام والعذاب، في المقابل سيكون العالم الأخروي وسيلة الخلاص والسّعادة الأبدية.

إن الرّمز الميثولوجي بحسب نيتشه وحده من ادرك حقيقة الوجود، حيث أن الديونزيوسية ترّد الإنسان إلى عالم الحقيقي وتحفزه على حب أرضه، كما تعلّمه الدّرس الذي يرسم له الكيفية التي بها يمكن أن يجعل من

الألم مرحا ومن الشقاء سعادة، هذا الرسم يجد نفسه داخل الأسطورة التي أظهرت مأساوية الوجود بالطريقة نفسها التي جاء بها ديونيزيوس إلى الوجود، حيث تروي الميثولوجيا الإغريقية أنّ دينزيوس ولد من رماد أم تدعى "سيملي"، فعندما أرادت من زوجها " زيوس Zeus " أن يظهر لها في كامل عظمته، وهو طلب دبّرته الآلهة "هيرا"، فلما حاول زيوس تلبية الطلب تحول إلى صاعقة أحرقت سميلي، ومن رمادها ولد ديونزيوس .لقد وظف نيتشه النموذج الديونزيوسي لتحقيق مرامي تخذم فلسفته اللامعقولة في الوجود ويمكن أن نختزلها مجازها في الثلاثية التالية :

أ–ميلاد ديزنزيوس المأسوي يكشف عن حقيقة الوجود الذي يقتضي إرادة الإقتدار لمجابهة القدر والمصي، وهذا الاقضاء نقسه يضمن الإندماج في الحياة بدلا من الهروب منها إلى الماورئيات باسم التضحية والزهد في صيغته المسحية: "تعتبر الإرادة كل إرادة مساوية لها مبدأ معاد للحياة وعامل من العوامل التي تؤدي إلى انحلال البشرية وتدميرها، ومحاولة لتشويه مستقبل الإنسان، وعلامة على الإعياء، وطريق ملتوية إلى العدمية." (Nietzsche, La génealogie de la morale, 1964, p. 177) حيث يولد الإنسان الأعلى الذي ينتمي إلى عالم الأرض لا إلى عالم السماء من داخل الحياة التي ترّحب بالرغبة والغريزة الديونزيوسية.

ب– يحمل الوجود طابعا لامعقولا، لهذا يشترط نيتشه فهمه بأسس لامعقولة أي بالأسطورة والجسد والمظهر، وهي عودة إلى الماثل والعيني والمحايث الذي لا طالما أقصته الفلسفة من معادلة الوجود، ولهذا يركن نيتشه إلى الصيرورة كما مثّلها ديزنيزيوس وشذرات هيراقليطس بوصفها جوهر الوجود وأصله الحقيقي. ففي الصيرورة يظهر الإنسان الأعلى الذي يجب أن يكون ديونزيوسي الأصل يقول نيتشه في هذه القضية: "على المبدع إذا شاء أن يكون هو بنفسه طفل الولادة الجديدة أن يتذرع بعزم المرأة التي تلد فيتحمّل أوجاع مخاضها" (نيتشه، هكذا تكلّم زارادوشت، 2014، صفحة 113)

ج– لمّا كان ديونزيوس إله الرقص والسكر والنّشوة، الفكاهة واللعب فإن الوجود لا يفسّر بل يؤوّل كظاهرة جمالية تستدعي حضور الغرائز والرغبات والميول الملازمة للكينونة الإنساني المحفّزة على الحياة، وبالعودة إلى الحياة نتجلّي إرادة الإقتدار، إذ أن الأقوياء يمثّلون العنصر الرجولي و ريدون تطوير الحياة واستمراريتها دوما. (Nietzsche, le gai de savoir, 1988, p. 106)

2.3–البعد الإستطيقي :

إنّ أعمال نيتشه من "مولد التراجيديا 1872" إلى غاية "فاغنار في بايروت 1876" انكبّت حاول مسائل متعلقّة بالفن والوجود، حيث استمد الوجود شرعيته من داخل رؤى نيتشه في علم الجمال. فالمؤلّفات الأولى خضعت لمصادر أثنى عليه نيتشه في كتاباته و يمكن حصرها في ثلاث مرجعيات أساسية: فلسفة شوبنهار اللامعقولة، موسيقى ريتشارد فاغنار، الأدب الإغريقي الكلاسيكي – التراجيديا وأعمال هوميروس.

يعتبر مولد التراجيديا من روح الموسيقي أول عمل ولدت منه فلسفة لم يعهدها الفكر الغربي إلى غاية هيغل، أين جاء العمل في طابع غنائي شعري يبتعد عن روح النسق والصرامة المنطقية، وهو ما جعل الكثير من الأكادميين يشنّون هجوما على نص المولد. كتب نيتشه إلى فريدريك ريتشل في 30 يناير 1872 ما يلي: " لا أشك في أي وقت من الأوقات في اهتمامك بي للحظة –فأنا مقتنع به تماما– لكنّني قد أستنتج أنّك قلق

شخصيا تجاهي، وذلك يعود لاهتمامك ولتبديد هذا القلق أن اكتب لك." (نيتشه ف.، 2020، صفحة 122) إنّ هذه الرسالة كانت عطفا لموقف ريتشل من المولد، ففي 31 ديسمبر 1871 كتب في مفّكرته بأنّ كتاب نيتشه مولد التراجيديا (انحلال ذكي وعبثي)، وهو نفس الإنطباع الذي أبداه في رسالة له يوم 15 فبراير 1872 حول كتاب مولد التراجيديا: حلبت به أمه". (نيتشه ف.، 2020، صفحة 123)

إن اهتمام نيتشه بواقع الثقافة الألمانية والعالمية إلى جانب آرائه في الشّأن السياسي المعاصرة له، لاسميا الحرب الفرنسية/البروسية 1870-1871، حثّته على التّفكير في سر قوّة الإغريق وسطوع نجم ثقافتهم، ليكتشف أنّ البريق الذي عرفه الإغريق في المرحلة التي سبقت سقراط راجع إلى التحام الميثولوجيا بالفن التراجيدي وما نتج عنه من مسرح، موسيقى، نحت، وشعر. كانت الميثولوجيا منطلقا لتحريك الفنون، ثم أضحى الفن بعد ذلك صانعا للأساطير. لقد أغاث الحوار الحميمي بين الرواية الميثولوجية وفنونها الإنسان الإغريقي على فهم العالم فبرّرها كحدث جمالي لا عقلاني، هذا الترحيب بالرمز الميثولوجي منحهم القوّة والعافية والوفرة. لأنها كانت من وسائل العلاج من الخوف الذي يدب في الكون والتهدئة من الرعب الأنطولوجي، فالموسيقى في شكلها التراجيدي منحت الإغريقي الراحة الطمأنينة ، لهذا أطلق عليه نيتشه العلاج النصف نفساني.

كانت التراجيديا الإغريقية لحنا موسيقيا تحركه نوطات ميثولوجية وتنطق بإسمه، فالتراجيديا في الأصل كلمة أغريقية تعني "تشيد الماعز"، لأنها كان خلاصة الطقوس الدينية والإحتفالية تخليدا لروح الإله ديونزيو ، حيث كان كورس الساتير يرتدون جلد الماعز ، و ينطلق أفرادها في التنيشد والغناء على شكل أدعية وصلوات، ثم يرتفع اللّحن في الإيقاع فتتحرك الأجساد راقصة رقصا يتمشى وسرعة الإيقاع الموسيقي إلى أن تفارق الذات الوعي وتتجلى داخلها روح ديونيزيوس، و هذه الخالة أطلق عليها نيتشه "السحر"، يقول نيتشه في هذا السّياق: "إنّ الرّوح الديونزيوسية تظهر عندما يغني ويرقص، فهو يعبّر عن نفسه كفرد من أفراد المجتمع الرّاقي، يبدو أنه نسى كيف يمشي ويتكلّم" (نيتشه ف.، مولد التراجيديا، 2008، صفحة 86) فهو شكل من السُكر يرمي في الأصل إلى ترويض الرعب بالفن والخوف بالرقص، ليصل في النهاية إلى مرحلة النّشوة والتّسامي، بمعنى يذوب الساتير في الموسيقى ويقفز من لحظة الوعي بالذات إلى تناسي الذات.

يقبع في الضّفة الأخرى النموذج الأبولوني إله السلام والنّظام ، التأمل العقلي والهدوء الفلسفي ، إله النحت والشّعر الغنائي. فالحالة الديونزيويسية الرامزة للفوضى والسّكر والجسد تتناقض مع الحالة الأبولونية القائمة على النظام والوعي، غير أن نيتشه يرى أن اتحاد النموذجين يهذّب التناقض والتعارض القائم بينها لحظيا، وهذا الاجتماع المؤقت سيؤسس لأركان الفن بشكل عام و التراجيديا بشكل خاص،غير أن الفن الأصيل يركن في النهاية عند النموذج الديونزيوسي لا الأبولني، لأن الأول يعبر عن حقيقة الحياة المفعمة بالنشاط الغريزي والدوافع اللامعقولة، فالموسيقي الديونوزيوسية القوّية والمتسارعة ستدمر الهدوء والإنسجام الأبولوني الذي يحاكي العقل لا الشهوة.

يستقبل نيتشه الموسيقى الديونيزيوسية بشعف كبير ، لأنها تعيد الحياة إلى مجراها الطبيعي باستنطاقها للغرائز والرغبات التي تعتبر العنصر الأولي لإرادة الإقتدار ، كما أنها المكوّن الأساسي لفيزيولوجيا الفن، فعن طريقها يتجلى الجسد كلوحة فنّية رائعة. وهنا، سيرد نيتشه الاعتبار للجسد الذي إزدراه الفكر الفلسفي واعتبره مركزا

للخطأ والخطايا.لهذا كان الدبونيزبوسي عند نيشته عدوّا للسقراطي وحتى المسيحي فالأول أجاد قراءة حركة الوجود الصائرة والفوضى العارمة في الكون وركّز على غرائز الجسد أما الثّاني حاول عقلنة اللامعقول واعتقال الغرائز والفنون.

إن قدرة نيتشه في الجينالولوجيا وبراعته في التأويل قاده إلى التأويل السيكولوجي للتراجيديا الإغريقية، مشيرا إلى أن جميع الشخصيات في المسرح الإغريقي مثل بروميثيوس،أوديب ما هي إلا أقنعة يختفي وراءها البطل الحقيقي: ديونزيوس. (نيتشه ف.، مولد التراجيديا، 2008، صفحة 150) لن يظهر البطل الحقيقي على خشبة المسرح إلا عن طريق الموسيقي التراجيدية. يقرّ نيتشه أنّ الميثولوجيا كانت تلعب دورا فنيّا كبيرا، فساهمت أساسا في ميلاد التراجيديا، ويبدو أن موت الميثولوجيا كان متزامنا مع مع التراجيديا مع يوربيدس الذي أنشأ الكوميديا ثم سقراط الذي قتل الشعر الغنائي بالمنطق، إن الإله ديونزيوس كما جاءت به الأسطورة وكما عبّرت عنه التراجيديا بعد ذلك تجاوز المنطق الباهت والبارد، وانفلت من الأشكال المنطقية، فهو إله الحرية المطلقة الذي دفع الذات الإغريقية إلى حب غرائزها ، بدّلت الألم سعادة ضاربا كل أشكال المحّرمات عرض الحائط.

3.3- البعد النقدي:

يتخذ النّقد عند نيتشه شكلا جينيالوجيا من حيث هو تأويل وبحث في أصل القيم، إذ تنثق القيم عنده من القوى المتناقضة وليس القيم في ذاتها، نتيجة لذلك لن يكون النّقد تقويضا لأسس سابقة فقط، إنما سيكون كذلك خلقا وتجاوزا ونزوعا إلى تأسيس الإنسان الأعلى. فالفيلسوف الحقيقي من منظور نيتشه فيلسوف مستقبلي يؤوّل، يبدع ويخلق قيما جديدة، باعتبار الهدف الرئيسي من الجينيالوجيا ليس ارتداد إلى الأصل والذوبان فيه، إنمّا إعادة احيائه من أجل التقييم، التقويم والتأويل.

وظّف نيتشه في البداية النموذج الديونزيوسي لتكسير أوثان الأخلاق الكهنوتية والفلسفية، لأنه الديونزيوسي لا يقيم أيّ اعتبار للقيم السائدة، ولا يفضّل العقلانيات الميتافزيقية المتعالية التي كانت وراء التقهقر الثقافي. إنّ الفلسفات الأخلاقية مؤشر خطير هدد الحياة، كما أنتج أخلاق العبيد وأضعف الإرادة بصياغته لتعاليم فوقية عدائية للجسد والحياة، فجعل الإنسان غريبا عن نفسه وعن أرضه. إنّ الجينيالوجيا من منطلق دينزيوسي تعيد الإعتبار إلى الحياة والغرائز، كما تنظر إلى الإنسان المشرّع الوحيد للقيم من خلال اللعب الدينزيوسي والمتعة الجسدية. سيكون الرمز الميثولوجي حسب نيتشه القوة التي ستتفجر من داخلها القوى الصامتة – الغرائز– التي حاول اللوغس الفلسفي دائما تهميشها، بالدعوة إلى القيم الأخلاقية. عرف الإغريق القدامى معنى الحياة لأنهم ارتحلو داخل الميثولوجيات والفنون، وكانت الحياة عندهم معاناة تشبه معناة سميلي في ولادتها لدينزيوس المأساوي، أو مرهقة مثل القهر الذي عاشته آلهة التيتان من طرف آلهة أولمب.

دينزيوس نيتشه هو المطرقة التي تحطم الأوثان الراسخة والأعراف الباهتة،إنه انحراف عن الشائع وعودة إلى أصل الأصل. لهذا تختار عبوة الديناميت –كما يحلو لنيتشه تسمية نفسه– في المرحلة النقدية زاردوشت نبيا لدينزيوس ليبلغ رسالته حول موت الإله ويبشّر بالإنسان الأعلى الذي لن يولد إلا بعد التحوّلات الثّلاثية للعقل، وهي كما يقول نيتشه في عمله هكذا تكلّم زاردوشت: " سأشرح لكم نحوّل العقل في مراحله الثلاث،

فأنبؤكم كيف استحال العقل جملا، و كيف استحال الجمل أسدا، و كيف استحال الأسد وصار ولدا" (نيتشه ف.، هكذا تكلّم زارادوشت، 2014، صفحة 43)

يرمز الجمل إلى الحموله القيمية التي وضعت على ظهر النساك من دون الإعتراض عليها، أما الأسد يمثّله زاردوشت الذي تبدأ مهمّته من الرّفض أو((اللاّ)) أي ((اللاّ مقدسة للأسد)) التي تسير رأسا إلى تفتيت القيم السائدة بشرية كانت أو إلاهية، هنا تنتهي مهّمة زرادوشت التي تبعث الديونيوسي من جديد كأداة لإثبات الحياة، وهو الإثبات الذي يولد منه الإنسان الأعلى وبه يتجاوز ذاته صانعا قيمه بنفسه، الإنسان الأعلى ينتمي إلى عالم الأرض ويظل وفيّا لها، كما أنه نقيض للإنسان الحديث المدجّن المتشبع بالأخلاق المعادية للحياة. (دولوز، 1993، صفحة 115)

إن حضور الميثولوجيا في شذرات نيتشه وآليات الإشتغال عليها، لم ترمي إلى التعليل ولا الترميز ولا الإستعارة بقدر ما كانت لحظة تفكرّية جينيالوجية تسعى إلى تفتيت القيم المتداولة، فهي أسلوب نقدي لأفكار لامعقولة مثل اللاوعي والجنون، الجسد والغرائز، لهذا كان توظيف ديونزيوس مكثّفا لمقاومة التماسك المنهجي، والمنطق العقلاني والقيم الأخلاقية من جهة، طريقا للتصحيح والتقويم و التأويل والإبداع.

4- خاتمة:

نستنتج في الأخير، أن الأسطورة في النص النيتشوي لم تكن ارتداد إلى الماضي فحسب، بقدر ما كانت أسلوبا جديدة لقراءة الواقع وإعادة التفكير في الكثير من القضايا المغيّبة في تاريخ الفكر الفلسفي. فالأسطورة حضيت بمكانة في الخطاب النيتشوي وما بعده، كما حملت أبعادا أنطولوجية، سيكولوجية، سياسية، جينيالوجية، قيمية وما إلى ذلك من الأبعاد والخصائص والغايات.وعليه، تكمن راهنية الموضوع وأهميته في قدرة لامعقولية الأسطورة على البوح بقضايا وإشكاليات لم تقدر عليها معقولية الفلسفة، فهي تكشف الجانب اللاوعي المدفون والبنية الأولية التي تتفجر منها الحقائق والعلوم والفنون.

إذن، أمام هذه الإفكار والتصورات يمكن أن نختزل مضمون الدراسة في أربعة نقاط أساسية، تشكل خلاصة البحث وأفقا لأبحاث مستقبلية:

- تعتبر فلسفة نيتشه مرجعية فلسفية لجميع المجالات البحثية في العلوم الإنسانية والإجتماعية التي استنجدت بالأسطورة لتحليل قضاياها وإشكاليتها، لهذا يمكن اعتبار الأساطير رمزا لا غنى عنه لفهم حياة الشعوب المتخلفة والمتحضّرة، كما أنها بنية أولية لتحليل الوعي الفردي والجمعي.
- لم تكن الميثولوجيا في النص النيتشوي لحظة تذكر بل منهج للتفكّر، فبواسطة تأويل الرمز الأسطوري- ديونيزيوس، أبولو، بروميثيوس...الخ- يمكن فهم مجمل القضايا التي دافع عنها نيتشه مثل: العود الأبدي، موت الإله، الإنسان الأعلى،إرادة الإقتدار، العدمية، الجسد، الفن وغيرها من القضايا الكبرى.
- لا تتموضع الأساطير داخل الدراسات الأنثربولوجية أو علوم الإديان، علم النفس، علم الاجتماع والفلسفة فقط، بل أضحت اليوم محايثة ليوميات الإنسان المعاصر، فهي لم تعد خرافة كما يعتقد الكثير، بل نزلت في الفترة المعاصرة إلى الشارع والشّخصيات.

• إنّ العلم الوضعي المعاصر نفسه يستعين بالأساطير في تفسير القضايا المبهمة كالبحوث في العالم اللامتناهي في الصغر واللامتناهي في الكبر، وراح ينتج بنفسه أساطيرا جديدة مثل إمكانية انتقال الإنسان من مكان لآخر لاسلكيا عبر الأمواج، أو حتى استنتساخ حيوان ونبات وإنسان من خلية واحدة.

- الإحالات والمراجع:

أ. باللغة العربية:

1. جوزيف كامبل. (1999). قوة الأسطورة. ترجمة حسن صقر و ميساء صقر، دمشق: دار الكلمة للنشر والتوزيع.

2.جيل دولوز. (1993). نيتشه و الفلسفة. ترجمة أسامة الحاج، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

3. دانيال بلو. (2018). *تشكل فريديرك نيتشه* ، ترجمة محمد الفشتكي، بيروت: دلر الرافدين للطباعة والنشر و التوزيع .

4. رولان بارت. (2012). أسطوريات. ترجمة قاسم مقداد، دمشق: دار نينوى.

5. عبد الباسط سيدا. (2022). الوعي الأسطوري الرافدي. بيروت: المركز العربي للدراسات وأبحاث ودراسة السياسات.

6. فريدريك نيتشه. (2020). رسائل نيتشه. ترجمة حيدر عبد الواحد وأحمد رضا، بيروت: دار الرافدين.

7. فريديرك نيتشه. (2008). مولد التراجيديا. ترجمة شاهر حسن عبيد، سوريا: دار الحوار للنشر و التوزيع.

8. فريديرك نيتشه. (2014). هكذا تكلّم زارادوشت.ترجمة فليكس فارس، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة.

9. ك.ك. رانِفين. (1981). الأسطورة. ترجمة جعفر صادق الخليلي، بيروت/ باريس: منشورات عويدات.

10. وديع بشور. (1981). الميثولوجيا السورية. بيروت: مؤسسة فكر للأبحاث و النشر.

ب. باللّغة الأجنبية:

1. Claude Levi Strauss .(1985) .anthropologie structurale .Paris: plon.

2. Friedrich Nietzsche .(1977) .La naissance de tragédie) .(Henri Albert,Trad.) Paris: libraire génrale française.

3. Friedrich Nietzsche. (1964). La génealogie de la morale. (H. Albert, Trad.) Paris: mercure de France.

4. Friedrich Nietzsche. (1988). Ecce homo. (A. Vialaltte, Trad.) Paris: U.G.E.

5. Friedrich Nietzsche. (1988). le gai de savoir. (Klossowski, Trad.) Paris: Gallimard.